



الخطاب المسرحي بين الفصحى والعامية

د. عبد العزيز بوشلاق

جامعة المسيلة

الموضوع:

تعدّ اللّغة أكثر الوسائل استخداماً في تفاهمات النَّاس و تعبيرهم عن مكونات نفوسهم ،فهي عامل جمع و توحيد و من ثمّ أساس التّواصل و الرّباط المتين الذي يجمع العلاقات بعضها ببعض في شتّى مناحي الحياة . و لتحيا الإنسانيّة حياتها هناك تأثير عميق للّغة و هي تقصر حيناً و تجمع حيناً آخر كلّ معاني الفكر و آمال و طموحات الإنسان ،كما أنّها المقياس على درجات الوعي و الانطلاق.

لها ارتباط بالمسرحيّة حيث تشترك فيها مفردات اللّغة في البوح بالخطاب الذي تحمله الشّخصيّة أو " يحملها الكاتب إيّاها ليكون لها التّغيير بعد التّأثير لأنّها [ليست كائناً مستقلاً إنّما هي دلالة و عين للأشياء و متغيّراتها كعنصر أساسي في الاتّصال بالجمهور] 1

من هذا المنطلق تعددت الرّؤى في اختيار نوع اللّغة المستخدمة في المسرح بين الفصحى و العامية أو ما يسمّى باللّغة الثالثة . و هي حرب لا تخدم المسرح في شيء بل تنتج استقطاباً و تعصباً لإحدى النظرتين لأنّ [اللّغة لا علاقة لها بالإخراج الكتابي سواء في كتابتها القديمة أو الجديدة ،هذا الإخراج يبدأ مع النّص ،سواء كتب هذا النصّ باللّغة العامية أو الفصحى الكلاسيكية ،إنّه منفصل تماماً عن قدرة التّصوّر للسياق المسرحي عن اللّغة]

لذلك ابتعدت لغة المسرحية عن الخطابة و الشاعرية الموجودة في الفنون الأدبية الأخرى لأنّها تحمل شخصيات عاطفية و فكرية في صورة مكثّفة ممّا هو موجود في الحياة اليوميّة فهي توحى بالواقع و لا تمثله حرفياً. إنّها تعبّر عن الشّخصية أصدق تعبير كأنّها ثوب حيك على مقاسها .ليست مبهمة غامضة و لا فضفاضة في إسفاف لارتباطها بالآنية آنية العرض إن كانت المسرحية معروضة أو آنية التّصوّر الفكري للقارئ إذا كان يربط الأحداث بما يقرأ لأنّ [لغة

الدراما هي لغة السلوك، وليست لغة التمرد [3
 إنّ تعبير اللغة عن الشخصية في أيّ جنس أدبي و بخاصة المسرح لا يعطيها الحق في
 أن تتميز بل [يجب أن نلاحظ أنه في مسألة اللغة لا يمكن أن نترك لكلّ شخصية في
 الرواية لغتها و إنما نترك لكل شخصية حقيقتها الإنسانية] 4

لذلك كان ارتباط اللغة بالشخصية من أعقد الأمور التي تطرق لها الدارسون و دار
 حولها جدل حاد في أي الجانبين يصلح الفصحى أم العامية.
 فكل منها كيان ووظيفة ، بل [يجب أن تكون لغة مباشرة لا يجد الجمهور عنثاً في
 استقبال ما تريد أن تنقله إليه] 5
 و مهما يكن من أمر فإن لغة الكتابة تختلف عن لغة التّخاطب مع ما للجامع بينهما من
 أن [مسألة الإحساس باللغة مفردات كانت أم جملاً مسألة جوهريّة فلكل لفظة لون
 عاطفي و حتّى الألفاظ التي تعبّر عن معاني عقلية لأبد من أن نعطيها شيئاً من حرارة
 العقل] 6

سواء أكانت اللغة وسيلة مثلما هي في المسرح أو وسيلة و غاية في غيره من الفنون
 والألوان الأدبية الأخرى لأنّها الوعاء الذي في إطاره تتمّ عملية الإبداع الذي [لا
 يتحقّق إلاّ عبر اللغة التي يرضعها الأديب و يتقنها و يتنفّسها و تسكنه] 7
 لذلك تظهر الشخصية بمستوياتها المختلفة من خلال اللغة التي تقيد بها فهي تترك
 الحوار يسير سيراً طبيعياً و يساهم في بلورة الأفكار و تطوّر الأحداث و نموّ المواقف
 كما تكشف ثقافة و فكر هذه الشخصية تعبّر به عن مضامين و ثقافية و رؤى و أفكار
 كانت بداخلها ، كما تساعد على إيصال الفكرة إلى الهدف المرجو تحقيقه .
 [و تبقى مسألة اللغة في النصّ ذات خصوصية متميّزة عن بقية الأجناس الأدبيّة
 الأخرى بوصفها تتفاوت في نبرة الخطاب ، و بلاغته تبعاً لطبيعة المتلقّي و المستويات
 اللغويّة و الاجتماعيّة التي تحقّق التّواصل و التّفاعل مع هذا المتلقّي ، و تبعاً لقدرة
 الحوار المسرحي على صيانة الأفكار و إيصالها] 8

بهذا المعنى ليست المشكلة في الفصحى أو العامية ، وإنّما في بناء المسرحيّة
 والمشاكل التي تعالجها لأن قضية لغة المسرح العربي قديمة حديثة متجدّدة مطروحة
 للنقاش منذ أمد بعيد، طرقه كثير من الكتاب، وألّف فيه كتبٌ كثيرة، حول العامية

والفصحى. فمنهم من يرى أن الفصحى هي التي ينبغي أن تكون لغةً للمسرح، وبالتالي تكون ذات مستوى أحادي لا يميّز بين الشخصيات المسرحية من حيث المستوى الثقافي وغيره وفيها التزام بقواعد اللغة العربية، وتراعي التمايز المذكور بين الشخصيات

[و سواء أكانت المسرحية بالفصحى أو العامية فالمقياس الصحيح للكتابة هو الوصول إلى الجمهور في سهولة و يسر و مخاطبة الجماهير بلغة سهلة يفهمونها تقرّر الأمور و تحكي الحوادث و الوقائع في جملة سهلة مستقيمة لا تلف و لا تدور] 9 - أما دعاة العامية فيرون أن عامة الناس تتفاعل مع العامية أكثر من الفصحى. وأنها أقدر على تصوير خصوصيات الواقع من الفصحى.

مما جعلها تتسحب على قطاعات أخرى مثل التعليم فهناك من يريد تعليم النشء باللسان الدارج للأسباب السابقة

وهذا الموقف الأخير ينطلق من معطيات اللغة العربية المعاصرة، ومدى حاجة الأجناس الأدبية إليها بأن تكون الفصحى لغةً للأدب من منطلق المحافظة على لغة مشتركة.

أما الاستعمال المحلي للغة الحياة اليومية يكسب الألفاظ دلالات موضوعية محضة فيها إضمار يتعدّر إدراكه على غير أهل ذلك الموضع، أو يحتاج في معرفته إلى شرح طويل لمن سوى هؤلاء الذين لا يتحدثون بتلك اللهجة

إن اللغة المسرحية ذات جماليات، لا كلام الشارع الذي لا يجلب إلا الإضحاك ولا هي لغة قواميس، بل هي لغة مهذبة بعيدة عن اللفظ والثثرة والقذف لأن للخشبة قدسيته تقابل جمهوراً له كرامته وله حساسيته.

مما ترك التمسك بفصاحة اللغة وسلامة الاستخدام لتراكيبها وقواعدها يجابه في الآداب والفنون بحرب شعواء يشنها أولئك الذين يدعون إلى التخفف من هذه المعايير والقواعد بطرق شتى ووسائل عدة، إما بدعوى التيسير حيناً وإما بدعوى الواقعية ومواكبة العصر والحياة اليومية حيناً آخر.

فمن الأدباء من يرى في الفصحى لغة سرد أما الحوارات فيفضلون أن تلامس الواقع وما يجري في حديث الناس من ميل إلى لغة الخطاب اليومية العامية رغم اقتدارهم على النظم بالفصحى، وهو أسلوب شاع في الأصل عند بعض الروائيين الذين جربوا أن يحلوا هذه المشكلة - مشكلة الفصحى والعامية - فكل وسط صنفوا الفصحى لغة السرد والعامية لغة الحوار، ثم انتقلت الموجه إلى المسرح الشعري أو الغنائي، خاصة وأن العبارات السردية لا تدخل ضمن حساب النقد ولا يعتد بها إلا كمفسرة وموضحة.

لذلك كان ضروريا البحث عن لغة مسرحية حقيقية، لغة تكون أكبر من اللفظ و أرحب من الأصوات و الإشارات [10

يلتزم فيها الكاتب بالأداة المستعملة الميسرة مع إمكانية المزوجة بين الفصحى البسيطة المستعملة والعامية القريبة من الفصحى و خاصة في المسرحيات النثرية [11
 [حيث أن ثروة اللغة تقاس بالثروة الفكرية و العاطفية التي استطاعت تلك اللغة أن تعبر عنها [12

[و تؤول الرسائل و تحدد من يقوم بقراءتها و من يطبق و ينفذ ما جاء فيها [13.

وفي معترك هذه الخُلف والنزاع برز صوت هدأت عنده معظم الآراء المحترمة والأقلام الملتهبة، ينادي بترجيح اللغة الفصحى في المسرحيات التاريخية والذهنية والمترجمة، وقصر العامية على المسرحيات الاجتماعية التي تناقش أمور الحياة العصرية طلباً للواقعية وإرضاءً للجمهور.

فهل الفصحى عاجزة عن التعبير بواقعية عن أمور الحياة العصرية عندما يجتهد الداعون في المناداة باستخدام العامية في المسرحيات الاجتماعية؟ ويجوز ذلك الأدباء والباحثون، وهل رغبات الجمهور هي الفيصل الذي يحدد مستوى الذوق الأدبي ودرجة المتعة الفنية؟!.

[إن اعتماد اللغة العربية الفصحى البعيدة عن التعقيد و التقصير هي التي تحقق التواصل بين أبناء الأمة الواحدة , و إن كانت اللهجات المحلية تجد قبولا من السكان الذين يتكلمونها و يؤثرونها , لأنها تعبّر عن حياتهم و واقعهم] 14.

[قد يرى الكاتب أن من حقه استخدام أية لفظة يحتوي عليها القاموس و قد تساعده الظروف و الإمكانيات على أن يتفرغ للبحث في المعاجم و لرصف المترادفات و لو كانت غريبة إلا أنّ هذا الرّكام من الألفاظ المهجورة المهملة يبدو متنافيا مع ما تقتضيه لحظة الكتابة , حالة التصوّف الإبداعي] 15.

[اختلاف اللغة في الفن المسرحي عن اللغة في باقي الفنون الأدبية يجعلها تقتصر في الفن المسرحي على التراكيب اللغوية فحسب , بل يدخل في نطاقها الحركة من إشارات و انفعالات تظهر على الوجه وفق مقتضى الحال] 16.

وهو ما يترك مهمة اللغة في المسرحية تحقيق قوة الصّراع و إثارته , و أن تساعدنا على إدراك حقيقة الشخصية التي أمامنا , فمهما أوغلت اللغة في الفصحى فلا يجوز أن نحاسبها إلا على قدرتها في المواءمة بين نفسها و بين شخوص الرواية فلكلّ شخصية في الرواية عقليتها و نفسيّتها و قدرتها على التعبير و التفكير , و من هنا وجب أن تكون اللغة التي تنطقها كل شخصية قادرة على إبراز طبيعة هذه الشخصية و رسم ملامحها

و قسماتها في وضوح و تركيز] 17.

[تلك هي وظيفة اللغة في المسرحية و من هنا لا يجوز لنا أن نفضل لغة على أخرى فنقول إن العامية أفضل من الفصحى في الدلالة على الأفكار و الأشخاص , كما لا يجوز أن نقول العكس دائماً , فاللغة الناجحة هي القادرة على تحقيق وظيفتها على المسرح سواء أكانت عامية أم الفصحى] 18.

يقف أنصار الفصحى في وجه انتشار العامية في الأدب والفنون؛ لأن تعدد لهجات الخطاب الأدبي يطبع الأدب بالإقليمية ويحدّ من انتشاره وفهمه على نطاق واسع؛ فالعامية ليست مفهومة في كل زمان ولا في كل قطر بل ولا في كل إقليم، وعليه

فاللغة الدراميّة ليست بالفصحى ولا بالعامية ، بل هي في معظم الأحوال أداة التعبير عن قرارات الشخصيات و أفكارها و معتقداتها و مشاعرها و آمالها و آلامها [19].
 موحية بالواقع و ذات تأثير و قدرة على تطوير الحدث و تعبير عن طبيعة الشخصية بوصفها واسطة لعملية نقل الأفكار.

المراجع :

- 1- عصام محفوظ مسرحي والمسرح دار بيروت لبنان ط 1. 1995 ص 37
- 2- ص 186.
- 3 - سمير سرحان دراسات في الأدب المسرحي مكتبة غريب الفجالة القاهرة مصر د/ط د/ت ص 23.
- 4 - محمد مندور في الأدب والنقد نهضة مصر للطباعة والنشر والتوزيع الفجالة القاهرة 1988 ص 144.
- 5 - علي الراعي المسرح الوطني العربي سلسلة عالم المعرفة العدد 248 1999 ص 464.
- 6 - محمد مندور في الأدب والنقد نهضة مصر للطباعة والنشر والتوزيع الفجالة القاهرة 1988 ص 150.
- 7 - مخلوف عامر الرواية والتحويلات في الجزائر مكتبة الأسد الوطنية دمشق 2000 منشورات اتحاد الكتاب العرب ص 17.
- 8 - حسين حموي الاتجاه القومي في مسرح عدنان مردم الشعري مكتبة الأسد الوطنية دمشق 1999 منشورات اتحاد الكتاب العرب ص 31.
- 9 - محمد الدالي الأدب المسرحي عالم الكتب القاهرة ط 2 2006. ص 327.
- 10- عبد الكريم برشيد حد ود الكائن والممكن في المسرح الاحتفالي دار الثقافة الدار البيضاء ط 1 المغرب 1985. ص 10
- 11 - أحمد علي عطية زلط مدخل إلى علوم المسرح (دراسة أدبية فنية مسرحية) دار الوفاء لنديا الطباعة والنشر الاسكندرية مصر ط 1 1999 ص 149.
- 12 - محمد مندور في الأدب والنقد نهضة مصر للطباعة والنشر والتوزيع الفجالة القاهرة 1988 ص 22.
- 13 - جهاد يوسف العرجا سيميائية الشخصيات في القاهرة الجديدة لنجيب محفوظ الجامعة الإسلامية غزة 2002. ص 12.

- 14 – حسين حموي الاتجاه القومي في مسرح عدنان مردم الشعري مكتبة الأسد الوطنية دمشق 1999 منشورات اتحاد الكتاب العرب ص 30.
- 15 – مخلوف عامر الرواية والتحويلات في الجزائر مكتبة الأسد الوطنية دمشق 2000 منشورات اتحاد الكتاب العرب ص 55.
- 16 – حورية محمد حمو تأصيل المسرح العربي بين التنظير والتطبيق مكتبة الأسد الوطنية دمشق 1999 منشورات اتحاد الكتاب العرب ص 275.
- 17 – محمد زكي العشموي دراسات في النقد المسرحي والأدب المقارن دار النهضة العربية للطباعة والنشر بيروت لبنان 1983 ص 277.
- 18 – المرجع السابق ص 278.
- 19 – نبيل راغب دار غريب للطباعة والنشر والتوزيع القاهرة 2001 ص 24.